

## رواية « قدر يلهو » : صياغة جديدة

فورات الشباب الثاني . . فهو لا يؤمن بان هنالك شيخوخة ، فالشيخوخة في رايه استسلام ، وتخاذل وجبن لا يرضاه . اما الحياة في نظره فسلسلة من التطورات البهيجة . والوان من الشباب المتجدد ، اسماها وارقاها والذها عهد النظرة الشاملة والنفس المرتوية . اذ يسبح الكاتب في جو مشرف ، مستقطب ، يرى منه الحياة . بنظرة اوسع ، وحسّ أعمق ، ومعرفة أعم ، وصدر رحب ، وقلب عطوف .

ويتسم الجابري اذ يتحاور ومحرر « الاداب » بشأن روايته القديمتين ، ويتفتق ذهنه عن التجربة الفريدة الجديدة التي يريد ان يقدمها لادبنا العربي المعاصر ، ويقول :

«سعيد. نشر « قدر يلهو » لكن بحلة يرضى عنها ذوقي وميلي الجديد . القصة ذاتها والاحداث ذاتها والمبرح ذاته . لكنني لن اقف عند « الازياء » الشائهة، التي تجاوزها الزمان . كريستيان ديور دالت دولته وتقاومت ازياءه رغم تفوقها القديم . سأكتب القصة ذاتها كما ارى ان يكتب القصص الحديث » .

ويدخل لحظات طويلة في صمت ، ثم يبتسم ويقول :  
« لن اكتب « قدر يلهو » ، بأسلوب الامس . . ولا بأسلوب اليوم . . سأتخطى هذا العهد . . سأكتب كتابي بأسلوب الغد البعيد . . وسيرضى عنه ذوقي وسيرضى عنه مفهوم الرواية كما اراه الان واحبه .

كل ما اتمناه ان تسمحوا لي بقفزة سريعة الى شارع الكورفرستندام ببرلين . . استعيد على شرفة من شرفاته مشاهد « قدر يلهو » في حلتها المستقبلية كما تتراءى لخيالي منذ مدة . اضيف اليها مواضيع كثيرة واحداثا عديدة والحانا جديدة تجنبت اثباتها في قدر يلهو في السابق . »

وهناك، ببرلين ، على شرفة مطلة على مسرح قصته القديمة تسارعت فصول الرواية ، ونمت ، وادخل فيها لوان ومواقف ومواضيع مثيرة . وعادت من برلين « قدر يلهو » بحلتها الجديدة وشكلها الأسبر . وتجربتها

التجربة التي فام بها الدكتور شكيب الجابري في الاربعينات كانت فريدة من نوعها في عالم الرواية . وضع رواية اسمها « قدر يلهو » تجري حوادثها في برلين وبيروت بين طالب طب عربي وفتاة المانية من همبورغ ، اكبر مرفأ في العالم واعظم ماخور في اوروبا . فاذا انتهت الرواية مروية على لسان علاء، اردفها الجابري برواية تاريخية تروي الاحداث ذاتها التي قرأناها في « قدر يلهو » ، لكنها مروية هذه المرة بلسان بطلة الرواية ايلزا ، وب عنوان « قوس قزح » .

واذا نحن امام قضيتين تكادان تكونان واحدة في احداثهما ، لكنهما جاءتا مختلفتين كل الاختلاف ، فيما عدا ذلك ، لغة واسلوبا ، وحساسة ، وتفكيراً ، وعاطفة، ولاول مرة في عالم الادب نسمع القصة مروية بلسان « المرأة » بعد ان سمعناها مروية بلسان « الرجل » ، فاذا نحن امام عالمين مختلفين ، رغم تقاربهما . ونلمس بدقة مثيرة الفرق الكبير بين نظرة الرجل ونظرة المرأة الى الموضوع الواحد .

وكانت التجربة على جدتها ، موفقة اهتزت لها افئدة قراء الرواية العربية في ذلك العهد .

وجاء الجابري الى لبنان بعد ان طوف سنين طوالا في الغرب والشرق . ورغبت اليه بعض دور النشر باعادة طبع روايته « قدر يلهو » و « قوس قزح » بعد نفاذ طبعاتهما القديمة . فابى مسابرة رغبة الناشر والقراء . وحجته في ذلك ان الذوق الادبي يختلف ما بين عهد وعهد ، وما كان يستسيغه القارئ العربي في الاربعينات او الخمسينات من نثر او شعر ، من قصة او رواية ، اصبح بعيدا عن ذوقه في هذا العهد ، وقد بات بيننا وبين الثمانينات شهور قليلة .

ويصر الناشر على ان روايات الجابري دخلت في ادبنا الكلاسيكي وانه لا بد ان يقرأها ادباء اليوم كما قرأوا عنها في كتب الادب والنقد .

ويأبى الجابري ان يقرأ شباب اليوم اديه محنطا . ان الجابري لا يزال على قيد الحياة ، وفي فورة من

الفريدة ، وتلقفتها « دار الآداب » لتكون الدار الأولى في العالم العربي لنشر هذا الأثر الجديد .

تجربتنا الجابري جديدتان لا بالنسبة الى الادب العربي وحده بل بالنسبة الى الادب الروائي في العالم . اذ لم يسبق لنا ان قرأنا شيئاً يذكر بتجربة الجابري الثانية الا في بعض السنفونيات الموسيقية التي تكتب اليوم مجددا بلغة موسيقى اليوم .

والرواية اليوم تسير بخطى وثيدة الى عالم النشر في منشورات « دار الآداب » .

لكننا آثرنا ان نستبق تاريخ النشر فاجتزأنا من الرواية فصلا جديدا ادخل عليها ، نشره في هذا العدد ، بانتظار قراءة الرواية كلها قبل مطلع الخريف .

اننا نطرح هذه التجربة المثيرة الجديدة امام النقاد والقراء ، منتظرين رأيهم فيها وتقييمهم لها .

ان في جعبة الجابري عددا من الروايات الجديدة ترحو « دار الآداب » ان توفيق الى نشرها بعد ان تعيد نشر آثاره القديمة : « نهم » و « قوس قزح » و « وداعا يا افاميا » و « هكذا سنقاتلكم في فلسطين » . وسنرى اي الكاتبين ابعثا اثرا في قلوب الناس : الجابري السابق ، ام جابري اليوم والمستقبل .

## « الآداب »

### فصل من الرواية الجديدة

الريح تنفخ قارسة . ورذاذ المطر يتطاير على غير هدى ، ويرشدني بأسراب من لآله الندية . يحط بعضها على حاجبي ، ويرف بعض على هدبي . وفوق خدي خطوط جارية من ذوبها البارد .

سقف السماء قريب . وطيء كما احبه . انخفض ضبابه ، فغمر أعالي الابنية ، وانسدلت سجوفه تجر ذبولها على اسفلت الطريق .

اما الشارع المقفر ، فسكون كله . حول مصابيحها هالات واجفة لنور ضئيل ، لا يبدد من ظلام الليل الاقله .

تكاد رهبة السرى تدركني . لولا يقيني اني اسير في اكبر شارع ببرلين ، في الكورفرستندام . وهو ، على تأخر الساعة ، لا يخلو من واجهة هنا ، وواجهة هناك ، تومئ باضوائها المثيرة . ان الحياة ، ان اطبقت اجفانها في المدينة على اعمق النوم ، فانها ههنا في انشط اليقظة وامتع اللذات .

وهرة تسعى . وسيارة تمرق . تمزق عجلاتها الفشاء المنساح رقيقا على اديم الشارع ، وتنشر مزقه السائلة بهسيس مثير سريع .

وغير بعيد . على متناول بصري ، شخص مقبل . يسير باتجاهي ، على مهل ، كأن هذا الجو لا يضيره ولا يعنيه .

حشث خطاي ، لما تبينتها انشى .

ظهر الكلال على ذراعها ، فوقعتا بغير حول على جنبها ، تهتران بغير اتران ، كدمية يلهو بها صبي عابت .

وكان لقائنا في مخروط النور الذي غمرنا به مصباح كريم .

وجه صبيح رغم انقباضه . وتحت قنسوة المطر كومة من شعر ، تخيلتها ، لما رأته من شوارد ذؤاباتها المبتلة الطفلة ، ذهبية اللون مشعثة كسعر العرائس .

لكن المحيا الفتى لم يخل من بقاع بنفسجية اللون ، مريبة . . . امن فعل ماجن فاجر ؟ . . . أم هي قرصات انامل الليل ، ولسع سياط الريح ، اذ تعلن للملا ان بريد الشتاء قد اذن ، ومراكب الثلوج اوشكت ان تنحدر من شاهقات ملاعبها ؟

\*\*\*

— آنستني استمحيك عذرا ان اعترضت سبيلك . فقد يشفع لي هذا النوء المتقلب ، لتقبلي صحبتي حتى تبغني غايتك .

قالت بصوت مستو . لا لون له :

— أخاف عليك التعب .

قلت . وقد رجحت في ذهني كفة الامل :

— تقطنين بعيدا ؟

— اجل ، بعيدا . . . بعيدا جدا .

وكنا قد خطونا خطوات مبهمة الاتجاه حين خطر لي بشأنها خاطر . فقلت ، وفي صوتي مسحة من دعابة : — أحب شيء الي ان انطلق في الليل الكبير ، تحت شلالات المطر ، في دوامة الزوايع ، عبر دهاليز الظلام ، يقود خطاي فحيح افاعي البرق ، ويملا سمعي هزيم معامع الكون الهائج .

ارتسم على ثفرها مشروع ابتسامه ، وتمتم صوتها عميقا رخيضا ، كأنه بدأ يستيقظ :

— شاعر ؟ . . .

— كلا ، لست بشاعر .

وكدت اردف قائلا : « اجل ، لست بشاعر ، لكنني احب موسيقى الطبيعة بجميع الحانها ، تنقيير المطر ، نياح الرياح ، قعقة الرعد وقهقهة الصواعق . . .

أحب ماردم الليل حين يخرج من خمارة السماء ضائع الرشدم معربدا ، قد تمتعته الحانة ، وفجرت الحانه .

قالت بصوت خافت تحدث نفسها :

رائع !

ثم أردفت تقول :

— السيد الشاعر ليس من أبناء برلين ؟

قلت ضاحكا :

— السيدالشاعر ، ليس بشاعر ، وهو ... من بلد بعيد .. بعيد .. فيه شمس ورمال ، واشياء كثيرة ، علاوة على قوافل الجمال ...

واشفقت عليها فقد ابتلت اكثر مما ينبغي . قلت :

— أترين الى الحانوت المنيـر . هناك . في شارع التاونسين القريب ؟ .. ما بيننا وبينه سوى دقيقة .. وانا جائع .. ان فيه مما تشتهي الانفس .. هلمي بنا ففي دفته يتم بيننا التعارف . وفي اقل من دقيقتين كنا فيه .

كان فيه من كسل شيء يحبه أبناء الشمال : الصومون الاسكندنافي المدخن ، والاسماك المجففة ، والقديد من كل نوع وقياس ، والاجبان ، والالبان ، والمخللات المتراصة فسي قواريرها ، من خيار هش ، وفقوس حامض ، وبصل لاسع ، وتوابل شتى يشور اللعاب لمجرد رؤيتها ... كل ذلك مكسوا بضباب فاغم من بخار دست كبير ، تنهادى ارتاله بطيئة في سماء الحانوت ، مختالة بما تبيحه للوجوه المشرببة من ريحها الشهية ودفتها السخي .. فاذا أدت للجائع حقه ، تخففت من أثقالها وانطلقت في الجو ، رشيقا الخطو . كأنها وضباب السماء على ميعاد .

أشرت الى بناية في الصف المقابل وقلت للفتاة ،

وفي يدي كيس من ورق خشوته بأطياب الحانوت :

— أترين النوافذ البيض ؟

....

— هناك أسكن .. غرفتي ، كما ترين ، غير بعيدة .. ما رايك لو مكثنا فيها ريثما تصحو السماء ، وأثناء ذلك نتناول طعامنا ، أمام نار المدفأة . ونهيب الشاي بأيدينا ونحتسيه على مهل وهدوء وتحكين وأحكي ...

قالت ، حائلة الصوت :

— لن تصحو السماء . ( بصوت هامس ، كأنها تخاطب نفسها ، أردفت : ) أجل ، لن تصحو السماء أبدا ..

قلت بلهفة انطلقت من أعماق قلبي :

— أرجوك !

ولم تلبث أن تحركت قدماها حيث أشرت ، مقتربة ببطء من وجاري .

برلين نائمة .

ثلاثة ملايين من سكانها يغطون في سبات . مدينة أحلام ... أحلام زاهية . أحلام باكية . أحلام آمال وجشع . أحلام رعب وضيق وقلق .

نيام يستحشون الليل لينبلج عسن فجر جديد ، يستمتعون بمكاسبه ... ونيام يتشبثون بأذيال الليل ، ولو قسا عليهم بأحلامه .. النوم وليتهم والغيوبسة نعيم ...

النوافذ مغلقة . في كل بيت قصة . على كل وسادة ورشة ، ورشة تصنع الرؤى ، لا تكاد تنشئها حتى تتبعثر .

مسرح أوهام الليل هذه المدينة . وكل مدينة . وما حياة نهارها بأقل وهما .

حتى « حديقة الحيوانات » الهائلة ، غير بعيد من هنا ، في غابة التيركارتن - القريبة ، أوت السى منامها ، عدا أسد يزأر فيشير نيام الحديقة . ثم يعود السكون ، فلا حس ولا نامة .

أما الارانب ، وصفار الضواري ، وروامس (×) الغابة ، فالليل نهارها .. هو الستر ، وبه المعاش ، وفيه يحلو الحب .

وهذا الجرذ المتحفز ، الرهيب ببصيص عينيه البراقتين ! سيد الكهاريز بلا منازل ... أتراه يبادلنا ، لو كان يدري ، قرفا بقرف ، واحتقارا باحتقار !

لعله أحسن حالا في كهريزه من بعض سكان المدينة .. انه ان جاع ، وجد .

في المنعطف القريب ، على بعد قليل منا ، رجل يخرج مترنحا من ال « كلوكن شتوبه » اي « حانة الاجراس » لكنه لا يوحى بشيء من حيوية الاجراس وفتوة جرسها . فيه شيء يوحى بالفراغ . كيس منهال ، قرية ينسرب زيتها .

وغانية نفيسة تأخذ بذراعه ، تحاول أن تسند التسعين كيلو وتردها الى بعض وقارها . وعينا تحاول . نفيسة حقا هذه المخلوقة الشقراء ، وعلى غااية من الاناقة لو كانت الالمانيات يدرين حقا ما الاناقة ..

صوته شاحط . عجوز ، متفسخ ، فيه نبرات من صوت فرخ ديك مراهق ، اذ يرتفع به من طبقة الدو الى طبقة الصول دفعة واحدة ، بأغنيتيه تلك العرييدة التي ما فتىء يصك بها سمع السكون :

لس اونس نخصال ترينكن ! ترينكن ! ترينكن !  
( دعينا نعاود الشراب ! الشراب ! الشراب ! )  
كل شيء فيه قبيح . وكل شيء فيها جميل . ورغم ذلك تلصق به وتحنو عليه وآياه تريد ...  
هو من بلاد الغرب ، وأنا من بلاد الشرق .

( × ) الروامس : صفار الحيوانات تخرج في الليل من اوكارها .

\*\*\*

عليّ النعاس من كل جانب ، فلا وقت لاستجلاء كامل الهوية .

أحد جوربيها ملتف على ساقها . أسفله مبتل قاتم ، وأعلاه أقل ابتلالا وأخف قتوما .. الجورب الملتف على ساق امرأة يثير بي دوما شفقة مشمئزة . فاذا اكتمل بؤسه بالبلل ولطخ الطين ، فانا حيالها انسان من جليد ، أو كذلك كان يخيل اليّ حتى تلك الساعة .

ليتني لم اعترض سبيلها ، ولم اتدخل في شأنها .. خالق الناس أدري بمصير الناس .. وأنا نعلان ، نعلان !

\* \* \*

غرفتي مربعة فسيحة . يكسو جدرانها ورق وردي اللون ، نقشت عليه طاقات من الازهار الكبيرة ، كانت تبدو لعيني غاية في الاناقة . وعلى الجدران نسخ رخيصة الثمن للوحات شهيرة . والارض مغطاة بسجادة ممراة الوبر ، تبتلع خفق النعال ، وتخفف من صياح الارضية الخشبية اذا تكاثرت فوقها الصحاب ، واشتد عليها وطء اقدمهم . وجلهم من اتراب الجامعة ومواطنيّ من طلبة العرب في برلين .. ونسق الرياش، على قلته ، تنسيقا لا يخلو من لطف ، تاركا للحركة مجالا واسعا في وسط الغرفة . وهنا وهناك اناء من نحاس دمشق القديم ، فيه عيدان من الترجس . وعلى المنضدة ، قرب السرير ، مصحف صفيير يستهوي الاجانب من ضيوف بنقوشه الذهبية .

لكن ضيفة الليلة لم تلتفت الى شيء مما حواه المكان ووقفت داخل الغرفة ملوية القامة ، حيرى . ولم تلبث أن تحركت مبتعدة عن السجادة ، كأنها فطنت الى تنافر حذائها وهذا البساط الغار ، المدلل كقطة سيامية .. أو كأنها خافت عليه نقاط الماء تنحدر من آن الى آخر من ننايا ذاك الممطر الذي تشبثت به فلا تخلعه ، كأنه الحصن الذي تتقي به خطرا تخافه . لم يكن في الغرفة مدفأة . بل كان هنالك ، في الواقع ، مدفأة قديمة ، مفلقة الجوانب بنوع من القيشاني الابيض . لكنها لطول ما أهملت استعمالها وكثرة ما نضدته على رفوفها وفي تجاويف جدرانها مسن تحف الشام الصغيرة، غدت أشبه شيء بمتحف شرقي صغير .

وانا من هـوأة الشتاء ، أحب البرد والأمطار والزوابع والصواعق والرياح المعولة . ولا أجد في روائع الموسيقى العالمية شيئا يدانيها نفاذا ولا انسجاما ولا عمقا ولا جمالا .

وكان من الذ اللذات عندي أن افتح النوافذ ، ثم انسلّ في فراشي ، لارسل سلمي الى الخارج ، يللم لي اصوات الشتاء . عنيفها وخفيفها ، ما مال منها الى

انا مثله ، وهو مثلي .. وكلانا يدلف في المدينة بالليل ، بحثا عن مزيد من الحياة . النهار المشغول ضيق ، مقتر ، شحيح . لا يتسع لجوعنا ..

وجوعنا غول . غول أكول ، يضجّ صفيقا ، ويعول .. مهما نلقمه لا يشبع .

مدمن اطلاق ، وعبد لهو وترف . يستعذب خوض معامع اللذات برداء من كساء الليل .. سواد الليل قماش سهرة الحياة . هو السموكنغ الابدي ، لا تكتمل الا به أعراس مجوننا .

تلقت نحو الزميل البعيد ، استاف غانيتها . كلانا شبه رامس .

ولأمثالنا تخرج في الليل ، من أوكارهن ، بنات الليل .

في الليالي الصافية ، في الليالي الباكية .. في برلين ، في بكين ، في طهران ، في سايفون ، في باريس ، على ضفاف النيل ، على الشاطئ الأزرق ، والساحل الزنجي .. لا اختلاف بيننا هنا ، وهناك ، وهناك .. جوعنا واحد ، قديم قديم . جيعا خلقنا ، وجيعا نموت . ومن شاء أن يمنع ، فليخنق الخلايا ، وليقطع نياط الفرائز من جذورها .

لكني ، في الحقيقة ، لا ازال اخاف بنات الليل ، وتعاف نفسي طوارق الرصيف الضامرات .. ورغم نفوري ، أن مررت بهن ، فلا بد لبصري أن يندس فيهن ، أن يغل بينهن ، أن يقتحم سرهن ، أن يخطف منهن شيئا ، أي شيء فيه اثر الانوثة .

البصر ذئب يستمرىء لحم الخطيفة ، ولو كانت مجرد رمز وخيال صورة .

وفي عيشهن متساحف صور ، وخطايا تثير . حمأة وحل ، ومناهة من طين .. وما أعمق ما تستعذب غرائزنا الاستحمام في الوحل ، والتفرج على شطآنه ، والغوص فيه أحيانا ، ولو بالفكر دون الجسم ..

كلما تخمر وترکز وفار بدنس الخطايا ازداد نكهة وطيبا وجذبا ، وشاق نفوسنا لو تعرت له لحظة وانسأقت اليه .. ففي نفوسنا وحل التخمر قديم .. بيننا وبين الطين قرابة .. لا ريب في ذلك . لا ريب في ذلك .

وعلى السلم ، الى مسكني في الطابق الاول ، تصعد لقيتي بخطى شاحبة ، منخفضة الرأس ، لا تحكي . وخلفها أسير أنا ، هاديء النفس وقورا . لكن بصري لا يني يبعثر أشياءها من خلف ، بفضول تارة وذهول تارة .

مطرها العتيق ، ذو الماضي الانيق ، صفحة من هويتها الغامضة المثيرة .. لكنني تعب مرهق . يتقاطر

من شعاع تسربت اليها مخففة . من مصابيح شارع  
التاونسين .

كانت الاحلام تنثال عليّ هنية بالغة الطلوة .  
رايتني واقفا على ظهر سفينة مزخرفة تمخر البحر  
بسكون . تنبعت من جوابها في غياهب الليل الحان  
ناعمة فتملا الكون بسحر غامض .

وغير بعيد ، على السفينة الثانية ، وقفت ايلزا  
هيلدا برانت . فما رايتها حتى فهمت اني امسيت ،  
منذ الساعة ، بطلا من ابطال لونغرين - اوبرا فاغنز  
الشهيرة - وما لبثت السفينة ان امحت لتلقي اليّ  
بالبطة الفاغرية ، وقد خرت على ركبتها ، منشدة  
بصوتها الشجي لحنا أوحى اليّ انه لبيتهوفن :  
« رب لم خلقتني ولم اك شيئا ! » . .

وسعت أصابعي في شعرها الناعم ، واذا بصفائرها  
العقيقية اللألاء ، تهدر أمواجاً من دماء قانية ، لم تزل  
تتمدد ويشفّ لونها ، حتى غدت حقولاً مذهبة السنابل ،  
يهطل المطر مدراراً من ماقيها ، والسماة صافية زرقاء ،  
وكلما قطرت من سنبله قطرة اكتوت يدي بلظاها .

وما لبثت آلاف سنابل الحقل أن رددت ، بعضهن  
بالعربية ، وبعضهن بالالمانية ، على نسق عجلات القطار  
السريع :

— دنكي شون ، شكرا لك . دنكي شون ، شكرا  
لك . دنكي شون ، دنكي شون .

انتفضت جالسنا ، مشدوه الفكر ، ضائعا بين  
حلم وحقيقة . كان ما احسسته على يدي من قطرات  
السنابل الممطرة ، قطرات دمع صحيح . ولامست شفتنا  
الفتاة ظهر يدي في لثمة مبتلة هببت لها من فراشي ،  
بصوت غريب ، كأنه أصابه مس :  
— من ؟ . من ؟ . ما الامر ؟

وكانت هي ايلزا هيلدا برانت ، ايلزا شارع  
الكورفرستندام ، لا ايلزا فون برانت . أميرة اللونغرين ،  
التي خلدها فاغنز بموسيقاه الهائلة .

كانت ايلزا غرفتي ، لقيتي في الشارع بعد  
منتصف الليل ، هي من جثا لصق متكئي على الركبين .  
تكرر شكرها المخضل بالدمعة ، وتقول :  
— كان لـ ( ذلك ) مذاق طيب يا سيدي . .

صحت متهدج النبرة ، الي حد القسوة :  
— ماذا تعنين بـ ( ذلك ) ؟!  
قالت وفي صوتها استحياء :  
— ذلك . . . الطعام الذي أصبته في بيتك . .  
كنت جائعة .

أطرقت لحظات ، ثم أردفت تقول :  
— أربعة أيام ، لم أذق شيئا . . عفوك ، سيدي ،  
عفوك ، ان خاني الجلد ، فأيقظتك ، من حيث لا أريد

المرح ، وما مال منها الي الكآبة والوحشة والافزاع .  
تأفراط بشيء منها . وكلما كان اللحن أقدر على اشاعة  
رعشة البرد في كياني كان أثر عندي وأحب الي . .  
ولكم ترنمت ، ولا أزال ، بأبيات من الشعر لفولين  
تهزني الي أعماق أعماقي ، أرددها بحنين لديد ،  
لا أرتوي منها ولا يعلو عليها في نظري اي شعر في  
الدنيا :

Les Sanglots longs

Des Violons

De l'automne

Remplissent mon âme

D'une langueur monotone

وترجمتها التقريبية ، التي تضيق الكثير الكثير من  
جمالها وروعة وقعها ، هي :

العويلـــــــــــــــــل

الطويـــــــــــــــــل

عويل أوتار الخريف

تملا روحي بضيق

ضيق

عميق

لطيف

وكان شبابي في فورته كفيلا بملء فراشي  
بالدفاء ، ولو في أبرد الاصقاع .

وقرقرة الشاي ، فوق المدفأة الكهربائية ، كانت  
النفمة الحلوة التي لا بد منها لتبلغ الحان الشتاء أقصى  
عطائها .

وغنت لنا الشاي في تلك الليلة ما شاء لها  
التغني . وأطلقت أريجها ، لتخلق حولنا الجو الذي  
يبدد الوحشة ويزيل حواجز الكلفة . . لكن وجوم الفتاة  
الغامض ما كان ليزول حتى يعود فيتجدد .

وشغلنا بالصومون المدخن والتوابل والحلوى .  
وجاءت كؤوس الشاي ، تشيع بدفئها ، في عروق  
الفتاة ، خدر النوم .

قالت : — اسمي ايلزا هيلدا برانت .

وقدرت ان النعاس لا يسمح لها بأكثر من هذا .  
فقلت لها :

— أرى الجو لا يزداد الا سوءا ، وقد استبد بك  
النعاس ، وأنا أسوأ منك حالا ، وفي غرفتي سعة .  
ذاك سرير تنامين عليه ، وأنا على المتكأ بكل راحة .

وقبل أن تجرد ما تجيب به ، القيت اليها  
بيجامتي ، وأشرت الي باب صغير يتصل بغرفتي  
أشارة أدركت منها ان هنالك حمام . وخرجت الي بهو  
النزل . ثم عدت بعد فترة طويلة .  
واذا النور مطفأ ، والغرفة ساكنة ، تنيرها حزم

لك الا الراحة .. عظم علي\* ان انصبر حتى الصباح  
فاؤدبك حفاك من شكري !

تبا ! تبا ! تبا ! الا لعنة على البشر ! ويا لعنات  
المروات !

بودي ان ابصق ، ان اصيح ، ان اشتم ، ان  
اهشم انفا ، اهتم فما ، اهيل قمامة الالفاظ البديئة  
على .. على .. على كل شيء ، على كل انسان ، على  
كل مرفته ، ومتخم ، وشبغان ، على كل وحش مسن  
وحوش هذه الغابة البشعة التي تجمع على رصيف  
واحد ، ألوف المشبعين ، وأفرادا من الناس يحملون  
جوعمهم في امعائهم ، وليس من يابه !

قلت بصوت كامد :

— أين كنت تنامين ؟

— كان لي غرفة . فلما عجزت عن دفع أجرتها ،  
اضطرت صاحبها الى تاجيرها لغيري ، لضيق ذات  
يدها . فلجات السى المتزهات وأطراف التيركارتمن  
القريبة من الشوارع ، لكنني كنت لا اكاد أغفو حتى  
توقظني عربدة سكران أو تهامس مريب ، أو نعيب بومة  
مدعورة . وأخوفها عندي صفير العنسن وحراس  
الغابة ، اذ خيل اليّ اني ان وقعت في ايديهم فمصيري  
النظارة أو ما هو ادهى . وقد تحرك رؤيتي فضول احد  
المارة ، فيقبل عليّ . ولا يزال بي ، يسأل ويتودد ،  
حتى افضي اليه بأمرى . واذا هو انسان كريم وصديق  
نصوح . فاذا تبعته ، انقلب تاجرا يساوم . فانكص  
على عقبي . وانا ارى الجوع أكرم من لقمته . ونسوم  
العراء أرحم من مثواه .

— أما لك اهل ؟

— حديث يطول ... آه ، سيدي ، عفوك !  
غفرانك ! أما كفاني ما أقلقته من راحتك .. انني  
حمقاء ، ألف حمقاء ... ليتني لم أقلق نومك ...  
رباه ! أي شيء فعلت ؟!

يا لهذا الصوت ما ادفاه ! .. دفؤه ملون ، دفقة  
من عطر .. شيء كالبنج ، لكنه يخدر وينشي في  
الوقت ذاته ..

أين كانت ألوانه منذ ساعة ؟ .. زوبعة الشارع  
أطفات سراجها ، فبدأ كامدا ، خامدا لا حياة فيه .

وتحركت تريد العودة الى سريرها ، فامتدت ،  
يدي ، من تلقاء ذاتها ، تبحث عن احدى يديها لتضم  
أناملها برفق .

والمت بي رعشة خلت معها ان برد الغرفة  
ازداد . فطفقت عيناى تبحثان عن مصدر البرد . لكن  
النوافذ كانت مغلقة ، خلافا للعادة ..

وأردت أن أشجعها لتمضي في حديثها ، فقد  
قضى الامر ، وطار نومي ، ولن يعود بأى حيلة . وأولى

لي ولها أن تمضي فيما نحن فيه من حوار . فيخف  
ما في صدرها ، واطمئن الى ختام القصة بما يهدىء  
بالسى .

لكن صوتي كان قد خلوط ، وشابته بحة ، فبدأ  
غريبا ، بل أوشك أن يكون مريسا ، فخفت أن يتنكر  
لقصدي ، فتؤول تبرته التأويل الذي لست أرضاه .

فرفمت يدي عن يدها . وطلبت اليها أن تمضي  
في حديثها ، بنبرة اقرب الى الامر منها الى الرجاء .

وكنت متيما بكلمات تجري على لسان بنات برلين  
مرددة متكررة بموسيقية فاتنة . وكان أعذبها عندي  
لفظة « بته » ومعناه « رجاء » .

لكن هذه اللفظة الحلوة اكتسبت معاني من الرقة  
جديدة على لسان ايلزا :

— بته ! بته ! بته !

بدأت أسكر .. عاد الوسواس الخناس ، يصفر  
في عروقي ، كدابه كلما اختلى رجل وانثى ..

وشتّ سمعي ، وتوزعت الجمّة وعيي ، ففي كل  
صوب منها لجام يشده ويحسه ، ويتعد به من حديث  
الفتاة الى شؤون أخرى من شؤونها .

## دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

### روجيه غارودي

★

● **ماركسية القرن العشرين**  
ترجمة نزيه الحكيم

● **منعطف الاشتراكية الكبير**  
ترجمة ذوقان قرقوط

● **البديل**  
ترجمة جورج طرابيشي

● **مشروع الامل**